على المخدر

ابراهيم المصري

« من عتابات الى زوجها صفوت »

عزيزي صفوت

انا لم اشأ ان أهدم حياتك ولكني أريد أن تعلم علم اليقين انك انت الذي هدمتها بنفسك ... لا تضطرب مما سأقوله لك ، ولا تدع الغضب يتمكن منك والسخط يستولي عليك... ولكن هل يمكن لمثلك أن يغضب او يسخط أو يثور ؟ ... ذلك هو محور المسألة. انت رجل لا تحفل بشيء ، ولا تتأثر بشيء ، ولا تقيم وزنا لأى شيء .. كل ما تنشده في هذه الدنيا هو راحة البال ، واطمئنان النفس ، وفراغ القلب ، والضحك ، والتنكيت ، و « الفرفشة » . انت لا تؤمن الا بنعيم مستمد من الصغائر ، وبسعادة نابعة من كل ما هو مادي واقعي رخيص .. هذا انت وتلك هي صورة نفسك . ولكني ما بدأت خطابي بالتحدث اليك عن هذه الصورة الظاهرية منك ، الا لأتحدث عن سر روحك ، وجوهر طبيعتك ، ورذيلة حياتك ، تلك الرذيلة السائبة البغيضة التي عصفت آخر الامر بنا ، وقوضت صرح بيتنا ، وألقت بي أنا في تيار مأساة مروعة كادت تفقدني سلطاني على نفسي ، وتقضي القضاء المبرم علي ...

لقد تزوجتني يا صفوت ، وانت تعلم اني كنت مدرسة ملحوظة المكانة في أوساط التعليم ، واني كنت فتاة رقيقة الحس ، مشبوبة العواطف ، مولعة بالفكر ، كلفة بالادب وسائر الفنون. ولقد اخترتني ، لهذه الخلال نفسها ، أو للمفاخرة بها ، لا ادري ... ولكنك على كل حال قدرت فضائلي ، وأقبلت على اقبال رجل معجب داخل مفترن ، يتمنى أن يشاطرني عواطفي ، ويقاسمني شعوري ونزعاتي ، ويبادلني الحياة المعنوية التي كنت أنزع اليها والتي كانت هي غاية فكري وقبلة خيالي ...

هكذا رأيتك في مبدأ الامر ، وهكذا تصورتك . اعتقدت انك مخلص في اعجابك ، صريح في اطرائك ، صادق في عزمك على أن تعيش معي وفق ميولي وعلى نفس المستوى المعنوي الذي كنت تعلم أني احبه ، وأوثره ، وانشد العيش فيه ...

والحق الذي يجب أن أعترف به ، هو انك في العام الاول من زواجنا ، حاولت أن تشعر ... حاولت أن تفهم ... حاولت أن تتغير ... أردت أن تسمو بنفسك ولو قليلا ... أردت أن تهذب من فكرك بالمطالعة ، وتهذب من عاداتك بالملاحظة ، وتهذب من أنانية أهوائك وطباعك بالرقة والدماثة ، ورياضة النفس ايضا على التضحية ..

ولكنك في الواقع كنت تمثل .. كنت تتكلف وتتصنع .. كنت تقاوم ذاتك ، وتكافح طبعك ، وتستر حقيقة أخلاقك ، وتود من أعماق نفسك أن تمزق ذلك القناع الذى اسدلته بيدك على وجهك .

وشيئا فشيئا ، وعلى مر الزمن ، مزقت القناع بالفعل ، ثم أطلقت لنفسك عنانها ، وارسلتها على سجيتها ، وبرزت فجأة رجلا قاسيا فظا غليظا لا يمت بأية صلة الى ذلك الرجل المهذب الممتاز الرقيق الذى ارتضيته انا زوجا لى ..

تبدل كل شيء فيك فجأة ، وعدت الى طبيعتك ، طبيعة الانسان الفطرى البدائي المتحلل من كل ضابط . انتزعت غرائزك من سباتها ، ثم ارتميت في غمرتها ، أسعد ما تكون بالتمرغ فيها ، واتخاذها وسيلة للزهو والاستهتار والتحدى .

وكانت غرائزك هي الحيوان الوضيع ، والكسل البغيض ، والشراهة المفرطة ، والبخل ... البخل الشائن الحقير المزرى .

كنت ما تكاد تدخل بيتك عائدا من الديوان حتى تطلب الطعام وانت تخار . فاذا ما جئتك به ، ارتميت عليه كوحش كاسر ، وطفقت تأكل بيديك وعينيك وقدميك وكل عضو فيك حتى تتخم . وبعد فراغك من تناول الطعام كنت لا تكلف نفسك عناء الجلوس الى ولو لحظة ، بل تسرع وتتناول شيئا من كربونات الصودا ، ثم تدخل مخدعك .. وتنام ... تنام حتى الساعة السادسة ثم تستيقظ ... تستيقظ ونفس النهم متمكن منك ، ونفس الشراهة مستولية عليك .. فترسل في طلب جارك وصديقك الوجيه العاطل امثالك .. وتجلس في الشرفة معه ، مرتديا جلبابك المخططة التي أبيت أن تستعيض عنها بالبيجاما ، ثم تنادى بأعلى صوتك كل بائع متجول ، و « تفاصله » وتساومه . وتشترى منه « الحمص » او « الملانة » ، او البرتقال او « اليوسف افندى » او الجزر . ثم تميل على صاحبك وترشقه بـ « النكتة » المكشوفة البذيئة ، ثم تقهقه قهقهة مدوية والطعام مايزال يملأ شدقيك ، ثم تلقى بأعواد الحمص أو أعواد الملانة أو قشر البرتقال على أرض الشرفة النظيفة التي غسلتها انا ومسحتها بيدى في الصباح ...

ولقد كنت أحاول ان أغفر لك شراهتك ، واعتبرها شبه تسلية تساعدك على تجديد روح المرح المتأصلة فيك .. ولكنك كنت تبز فيها امثال بعض النسوة البلديات المتلهفات على السمنة بأى ثمن ... أجل .. كنت مثلهن تماما . لا تتهافت على الطعام فقط بل تتهالك أيضا على « الفتة » و « الحلبة » والكبيرة ، وتأبى الا أن تسمن وتترهل وتستكرش وتصبح كباشوات العهد القديم ، تباطأ في حركتك ، وتتئد في اشاراتك ، وتتهادى في مشيتك ، وتتخطر وتتعثر تعثر الوجاهة والعز والدلال .

ولقد كان يثير فيك فوق ماتقدم ، ولعك الوحشى بأكل اللحوم ، ومعرفتك الراسخة بأنواعها ، ودقتك العجيبة في اختيارها ، واتجاهك في معظم امسيات الشتاء الى قتل وقتك باستحضار ذلك القرطاس الكبير المملوء بالفحم ، ورص الفحم في الموقد ، واشعال النار فيه ، وخنق أهل البيت بدخانه ، كي تشوى

عينيه شرائح اللحم ثم يلتهمها وهي ساخنة طرية لذيذة تسبح بالدهن !!!

انك كانت هوايتك المفضلة التي طالما زجرتك عليها، ونهيتك عنها، وحاولت أن أحررك منها، حرصا على صحتك وكرامتك ولكن دون جدوى .

بيد ان شراهتك كانت لا تقلقني، وميلك الى السكون والكسل كان لا يحيرني، ونزعتك الى الاستهتار وعدم الاكتراث كانت لا تذهب بهدوء أعصابي .

كل هذه الاهواء كانت تبعث في نفسي على الرغم مني شعورا بالتقزز فقط، تخالطه الحسرة واللوعة والندم. أما الرذيلة التي كانت حقا تدمي، وتجثم على صدري وتملأ قلبي بالكراهية والخوف والحقد، فهي بخلك المريب. بخلك الخارق، بخلك الذكي اللئيم الخبيث، الذي جعل من ذهنك آلة «حاسبة» عجيبة، آلة تكيل بكيلين، وتبرع برعمين، فتسخو على نفسها مختارة، بينما هي، في مساومات مدهشة، تذل الآخرين، وتحرمهم، وتقتر عليهم أشد وأبلغ وأبشع تقتير.

من ذلك «الطعام الشهي لك، والكساء الأنيق لك، وتحقيق مختلف الرغبات والنزوات طوع مراحك . وأنا ... أنا زوجتك، زوجة صفوت أفندي، أستغفر الله، بل زوجة صفوت بك الموظف في الدرجة الرابعة، فيجب ألا أكون امرأة، ويجب ألا اتجمل، ويجب ألا أحصل مستانا على «الموضة» أو أشترى زجاجة كولونيا، أو علبة «بودرة» أو اصبعا من الروج، أو حقا من الكريم ... كل هذه الاشياء كانت في نظرك مساخر وترهات وكماليات يجب أن أهجرها أنا وأستغني عنها . وأعرف كيف أكون امرأة جميلة أنيقة بدونها. أما طفلتك . بنتك، بنتك الوحيدة، فلا يجوز أن تمرح . ولا يجوز أن تبكي، ولا يجوز أن تمرض، فتعكر مراحك، وتقلق راحتك، وتجلب اليك الوساوس والهموم . وأما اذا حدث وأصيبت بأي داء فواجبي أنا أيضا، أنا وحدي، أن أعنى بها . وأن أتحمل جهدي عرضها على طبيب، وأن أحملها وأطوف بها على المستوصفات الشعبية، او المستشفيات المجانية، أسرق لها العلاج والدواء من الفقراء والمساكين.. والويل لي ثم الويل ان حاولت أن أستغلك . وأحتال عليك، وأغالطك في الحساب، وأخفي عنك قرشا واحدا أنفقه على نفسي، أو على زينتي . أو على بنتي . انك حينئذ تفتح عينيك، وترهف اذنيك، وتنقلب الى صراف محروب حذر يقظ، ثم تبدأ بمحاسبتي على كل قرش بل كل مليم وانت تبتسم ابتسامة فاترة ناعمة، ملؤها الدهاء والخبث، والرغبة في الاحراج والاتهام والاذلال ...

هذا البخل الوضيع، هذا البخل النابع من الأنانية، والصادر عن غلظة العواطف، وجفاف المشاعر، وجشع النفس، وفراغ القلب والروح . هذا البخل الذي كان يمكن لك من التمادي في الشراهة، والتمتع بالاناقة، والاغراق في الكسل والمجون وعدم الاكتراث على حساب امرأتك وبنتك وبيتك، هذا البخل ولد فيك على مر الايام، وانت لا تدري، ولعا مصاحبا بالجشع، وشغفا جنونيا بالمال، وتكالبا مسعورا على المصلحة، وشذوذا مخيفا في الميول والاهواء .

وهذا الجمود هو الذي اشعلني بالكارثة التي أروح تحتها اليوم ، بل هو الذي احفر الهوة تحت قدمي ، وزين لي بالرغم من صبري وطول احتمالي ان اثور ثورة جارفة على حظي وان أكتب اليك هذه الرسالة . بعد ان غدرت بك أنا واختي ، وطلبت مذعورة الحيلة الى منزل أبي . . . فاسمع الآن . . . اسمع الحقيقة كلها . . . الحقيقة المروعة التي صنعتها أنت . . . وعندئذ أن تجعل وتضطرب وتراجع نفسك قبل فوات الوقت .

بعد عشنا معا أربعة اعوام ، ولكننا لم نعش في بيتنا منفردا . كان معنا شقيقك «سامح» منذ أول يوم تزوجنا فيه . لم أشأ في مبدأ الامر أن أعيش في بيت يلازمني فيه رجل غريب . وكدت أرفض هذا الزواج . ولكنني بعد ان رأيت سامح . وتعرفت اليه ، وقص علي قصته . وعلمت انه كان متزوجا منذ عشر سنوات بامرأة أحبها الى حد العبادة ، ثم طلقها لسوء سلوكها وآلى على نفسه أن يعيش عزبا ، وأن ينصرف عن النساء . والا يقدم على الزواج مرة ثانية ، بعد ان علمت كل هذا ولمست في شخصية سامح حسرة عميقة على امرأته، وحنينا جميا الى الايام والاعوام التي أمضاها معها ، تأثرت له، واطمأنت نفسي اليه ، لا سيما وانه كان رجلا دمث الطبع ، لين الجانب . رقيقا مهذبا ، يعرف كيف يحترم نفسه كما يعرف كيف يحترم الآخرين .

وهكذا رضيت بالحياة معكما تحت سقف واحد . رضيت وانا متنبهة متيقظة ، ارقب كل حركة تصدر عني، وكل كلمة أو اشارة تند مني؛ وأحاول ما استطعت أن أكون مع سامح بسيطة في ظرف ، متحفظة في كياسة ، رقيقة في عزة وأدب واحتشام .

وكان سامح يحترمني ويقدرني قدري . ويعاملني معاملة الاخت، متحسبا كل مباسطة معي . وكل خلوة تجمعه بي ، وكل حديث خاص يرفع الكلفة بينه وبيني . وكنت أنا مستريحة الى هذا الضرب من الحياة ، اغبط نفسي على ما حالفني من هدوء وتوفيق . ولا أحضر على بالي لحظة واحدة ان ازداد تقربا من سامح أو اقتحم شخصيته ، أو اجاوز في معاملته حد الود الأخوي الصريح .

ولقد احس هو مني ذلك التحفظ . فازداد احتراما لي ، وتشبثا بالجمود المؤدب المتباعد الذي كان قد فرضه على كل تصرفاته معي .

ولبثنا على هذه الحال طوال تلك السنوات الاربع . ثم تغير فجأة كل شيء . . . كنت أنا مثال التحفظ وكان سامح مثال الادب بل مثال الجمود . ولكن هذا الجمود الواقي ، هذا الجمود العاقل المتزن ، لم يعجبك انت . . . انت زوجي . . . لقد شرعت تتبرم وتتململ . فاستغربت أنا تحولك، ولم أدرك علة استيائك ، ولم استطع أن أتبين حقيقة نواياك . . .

وفي ذات يوم ، في ذات يوم تذكره ولا شك تماما ، دعوتني الى مخدعنا ، ثم أوصدت بابه ، ثم اجلستني على حافته، وقلت لي ولمعة الدجل تومض في وجهك، ولهفة الجشع وحب المال تتقد في عينيك ، قلت لي ان أخاك سامح موظف ممتاز ، وانه يتقاضى اليوم من الشركة التي يعمل بها مرتبا كبيرا، وانه لايعول زوجة ولا أولادا ، وانه قد ادخر في

العشر سنوات الاخيرة التي أمضيناها عزبا مضمعا يربو على الثلاثة آلاف جنيه فتطلعت اليك انا ولم افهم ... لم أسمي ... فزجرتني وصحت بي وعيناك تبرقان ، ان واجب الحكمة والعقل يقضي علينا بأن نربح سامح لأنفسنا ، وندمجه في حياتنا جهدنا ، ونرغمه عليه قدر استطاعتنا ، كي يخرج من انكماشه وجموده ، فلا يحس مرارة الوحدة ، ولا يشعر بالحنين الى الحياة العائلية ، ولا يفكر رغم تعلقه بالمروءة، في الاقدام يوما على زواج جديد ، وهكذا تبقى ثروته لنا ، وخيره لنا ، وماله لنا ولأولادنا ...

هذا ما قلته لي انت بالحرف الواحد ثم ضممتني الى صدرك ، وهمست في اذني ان سامح بدأ يتردد على اسرة صديقنا المحامي الاستاذ صلاح ، وانه يعجب بابنته الجميلة «سهام» وانهم قد فاتحوه بشأن الزواج منها ، وانه حائر محجم ، يشعر بميل الى الفتاة ولكنه متردد في التضحية بحريته وتكبيل نفسه بعد أصبح لا يألفه ... فتفرست انا فيك بدهشة وسألتك مزيدا من الايضاح ، فقلت لي بلهجة آمرة جافية، انه يجب علي أن اقرب جهدي الى سامح وأن اجامله وأسايره ، واجامله واتملقه ، واحببه واستميله ، وابذل قصاراي في التغلب على تحفظه وجموده، بحيث يركن الينا ويطمئن الينا، ويحس انه واحد منا ، فلا تتمكن منه الوحشة والجهامة ، ولا تدفعه مرارة الوحدة الى التفكير يوما في الزواج بسهام أو بغيرها ...

وكنت تتكلم ، وصدرك يلمع ، وصوتك يتلهف ، وانفاسك تغلي ، وبدنك يرتعش ، وانت تتصور مال أخيك وقد أصبح في النهاية لك وحدك ، وكنت أنا انظر اليك ، وأتأملك ، وأعدك بأن أذعن لأمرك ، وملء نفسي الشعور بالكبر والأنفة والتقزز والضجر ..

أجل ، لم اكترث لتدبيرك ، لم اعلق عليه اهمية كبيرة ، ولكني مع هذا نفذته لأرضيك ، اقبلت على سامح بوجه اوفر بشاشة واكثر استجابة واقل تحفظا ، بيد اني لم أستطع مغالبة طبعي والتحلل دفعة واحدة من مختلف ضوابط العرف والعادة التي كانت تسيطر على تصرفاتي وميولي ، فاستثرت انت وتذمرت ، وانتهرتني في عنف ، ثم رميتني بضيق الذهن ، وقصر النظر ، وقلة الحيلة ، فكنت انت ، انت الذي حررتني وشجعتني ...

نعم شجعتني ، فمضيت انا طوعا لأمرك أستدرج سامح واحاوره ، واروضه وادلله ... واترضاه واجتذبه ، فبهت الرجل لتحولي ، وانكمش وتراجع ، وازداد جمودا ، بل ازداد انطواء وتباعدا وتجهما ، فأحسست انا ، احسست لأول مرة في حياتي ، بغريزة الانثى تجيش وتصطخب في صدري ... كبر علي أن يتحداني رجل ، ويروغ مني ، ويثبت أمامي ، ويستعصي علي ، فلم التجأ الى اللطف والتودد فقط كما نصحتني ، بل وجدتني الجأ ، بالرغم مني ، الى الدهاء .

فطفقت اقبل تارة على سامح ثم أعرض عنه ، امسه بصداقتي ثم انقلب عليه ، اعرض عنه فترة ، ثم أتبرم به

وادعة يربيه الحيرة والقلق والتخبط والذهول ...

هذا الجو المضطرب المتكهرب ، المتأرجح بين المد والجزر ، أحدث أعمق الأثر في نفس سامح ، فخشي أن يفقدني ، وخشي أن يثيرني ، وخشي أن هو أسرف في جموده أن أسرف أنا أيضا في إعراضي ، فتستنكر أنت أمرنا ، وترتاب فينا ، وتتشكك في براءة ونزاهة صداقتنا .. فلم يستطع سامح ، بعد جهد إلا أن يلين لي مكرها ، ويقبل علي مترددا ، ويبادلني في الوقت بعد الآخر تبسطا ببسط ، وودا بود ..

وكان يدرك أني صادقة في ودادي . وكان تاعسا ومحروما لم يألف متعة التجاوب مع امرأة منذ سنين . فظل فترة طويلة يعاند ويكابر ، ويتمنع ويتحفظ ، تدفعه الرغبة ويمنعه الخجل ، حتى استمرأ في النهاية حلاوة الألفة ، وعذوبة التقلب في جو المرأة . فطأطأ الرأس صاغرا ، ولان تماما واستسلم وخضع ...

وكنت أنت سعيدا بهذا التبدل الفجائي الذي أردته وأغريتني به ..

كنت من فرط ارتياحك وابتهاجك بمعي في هواياتك المفضلة ، فتقيم سهرات « شواء » صاخبة ، وتلتهم شرائح اللحم وأنت تنثر النكت المحرشة اللذيذة ، وتضحك وتغني وتكاد ترقص .. لم أرك أبدا سعيدا كما رأيتك في تلك الأيام . كنت ما تفتأ تقبلني ، وتهنئني ، وتهتف في أذني أني في الحق امرأة وفي الحق أنثى !...

وشرعنا نعيش معا أنا وأنت وسامح كأسرة متفاهمة متآلفة ..

بدأنا نسهر معا ، ونلعب الورق معا ، ونشرع بريلوه العريب ونؤثر أن نبقى في البيت وحدنا .

وإذ ذاك ، وفي هدأة لياليها الحلوة الناعمة، بدأت أنا أهتم اهتماما جديدا بسامح وأتأمله وأتفرس فيه ...

كان رجلا شامخ الرأس في عزة ، وئيد الحركة في هيبة ، ذا عينين ساهمتين تنبضان عذوبة ورقة ، ووجنتين تقطران نضرة وفتوة ، وشفتين دقيقتين ترتسم عليهما ابتسامة حالمة متحيرة .

هذا المزيج من الأنفة والسماحة ، من الرجولة والرقة ، سكن جوانحي ، وضاعف اطمئناني ، وحبب إلي المضي في هذه الحياة الجديدة التي شعرت أنا أيضا أني أحوج ما أكون إليها للترفيه عن نفسي .

ثم بدأنا نخرج إلى النور ونستجلي معا طلعة الدنيا . كنا نخرج إلى المسارح ودور السينما ، إلى الكازينوات وملاهي الليل . وكنت أنت ترعم تارة أنك نسيت حافظة نقودك ، أو تتململ أحيانا لأنك في حاجة إلى « الفكة » ، أو تصطنع السهوم والشرود والاستغراق في التفكير كلما كان يقتضيك واجب اللياقة أن تدفع على الأقل نصيبك ونصيب امرأتك . فكان سامح هو الذي يدفع ... كان يسبقك إلى الدفع حتى لا يحرجك ويصيبك في عزة نفسك أمام زوجتك .. ولما

كنا نجلس للعشاء في أحد المطاعم الكبيرة ، كنت أنت تنتهز الفرصة ، وتطلق العنان لنهمك وطمعك وشراهتك . فتطلب لنفسك عشاء كاملا ، وكأسين أو ثلاثة من الويسكي ، ولونين أو ثلاثة من الحلوى . فاذا ما جاء وقت الحساب ، أشحت بوجهك ، ولذت بالشرود كعادتك ، وأنت تخرج علبة سجائرك في حرص ، وترمق أخاك من طرف خفي ، كي تتعقبه مرة أخرى وهو يحاسب الجرسون ، وتحسس عليه حتى سجارة ...

وكنت أنا ألحظك وأكاد أموت خجلا وغما . ولكنك كنت تستخف بي ، ولا تقيم وزنا لحنقي ، بل كنت على النقيض تغمزني بعينك ، وتنبهني بقدمك . وتحثني على التغافل و « الصهينة » مثلك ...

وكان سامح يدفع وينفق اكراما لي ، وخجلا مني ، وابتهاجا بوجودي ، وتأدية لواجبه كرجل مهذب يخرج في صحبة امرأة . فكنت أشعر شعورا مرا عميقا بأنه ينفق من أجلي ، وأنك أنت تعرف ذلك يا زوجي ، تعرفه وتريده ، تريد أن تتخذ من امرأتك وسيلة لاشباع غرائزك وأداة لاستغلال أخيك ؟ ...

هذا الشعور ، شعوري باسفافك الى هذا الحد وهوان شأني عندك ، هو الذي ذهب بعقلي ، وأفقدني اتزاني ، وبدد البقية الباقية من تحفظي ، وأثارني عليك ثورة دفعتني بالرغم مني الى محاولة الثأر منك بمضاعفة التقرب الى سامح ...

أجل . كنت تسرف أنت في استغلالي ، فأسرف أنا في التودد الى سامح عساك أن تغار وترتدع وتفهم . بيد أنك كنت ممعنا في بخلك ، سادرا في طمعك ، غافلا أو متغافلا عن نتائج تصرفك . فضاق صدري ذرعا بك ، وضاق صدري ذرعا بحياتي المظلمة الوضيعة معك . فلم أجد بدا من أن أنفس عن كمدي في التعلق والتشبث بتلك الصداقة السامية الناضرة التي كانت قد بدأت تتوثق بيني وبين أخيك ..

وهكذا حملني التيار على دهش مني فأخذت بسحر سامح ... رأيت فيه نقيضك وما كان يجب أن تكون عليه أنت . رأيت فيه ملاذي وملجئي . شعرت أني في حاجة اليه . أحسست أني أتخلص في قربه من ربقة غلظتك وشدة ضجري . كل ما كنت أتحرق عليه وأنشده فيك وجدته فيه : رقة الطبع وأدب النفس وكرم اليد وجمال الروح . فأذهلني شوقي ، وأفقدني سلطاني على عقلي ، وأسلمني الى هذا النعيم الذي لم أكن أتوقع أن أخالسه ولو بالوهم طول عمري ...

وكان جوا مبهما غامضا عجيبا ، يتكاثف وينقبض تارة ، ويصفو وينفرج أخرى . ذلك الجو الذي سبحت فيه أنا وسامح ..

كان سامح لا يتكلم . كان ينظر الي فقط . وكنت أرى في نظراته الحيرة والقلق ، والارتباك والتعثر ، والاستنكار والتأبي ، والخجل والاعتصام . فكنت أحدق فيه طويلا ، وأرسل اليه من ومضات عيني ولهفات أنفاسي مابشره

ويدعوه . فكان يطرق ويهمهم . ثم يرتجف ويتخبط . ثم تعقل على مكرها ، ويظل شاخصا الى وقع عينيه ... مهمومة يوشك أن يحالطها . من فرط المجاهدة والكبح ، فلهف مندفع مخبول .

والهبت أنا فيه هذا التلهف ما شاء لي مكري وخبثي وسحري وإسهامي وفرحي الطاغي بالسعادة النادرة التي غمرتني . ولكني شعرت فجأة أن هذا التلهف نفسه يجاحشني ، لأني قد بدلت سامح ولأنه قد أصبح تحت تأثير اغرائي رجلا قويا مغامرا جسورا ، لا يكفيه أن ينظر الي ويتأملني وينعم بصداقتي ، بل يريد أن يقتحمني ويغزوني ويمتلكني . فانخلع قلبي وارتعدت . عرفت لأول مرة شعور الفزع والخوف والحب ... ولكني ما كدت أفزع وأخاف حتى اضطرب هو أيضا وملكه الذعر ..

وبتنا كلانا والذعر يطاردنا ، نهمس ولا نتكلم ، نلهث ولا نتنفس ، نتساقط ولا نمشي . نتلامح بعيوننا فترة ثم نسرع فنغض من أبصارنا حرجا وكأننا قد ارتكبنا الجريمة بالفعل ولم يعد في وسعنا الا أن نرتكبها أيضا كي نحقق فيها تكبيت ضميرنا ، ونقر السلام في قلبينا ونستريح .

وكان خوفنا من الجريمة يدفعنا اليها ويغرينا بها . فكنا نراها دائما أمامنا ، زاحفة الينا ، مخيمة علينا ، مطوقة أفكارنا ، مندسة في خيالنا ، تبتسم لنا وتضحك منا ، وتهزأ بخوفنا وجبننا ...

واشتد بنا الخوف . فاشتعل حبنا . واضطرمت عواطفنا . ووصفنا بالقسر والألم والحرمان . وأحسسنا في لحظة من لحظات وعينا المتيقظ المذهول أن الهاوية المروعة تحتضر شيئا فشيئا تحت أقدامنا ...

ففي تلك الليلة ، واظنك تذكرها ، تلك الليلة المقمرة الحارة الخانقة ، وأنا راقدة في فراشي بجوار ابنتي ، أفكر فيك يا زوجي وأنتظر عودتك من الحفلة التي دعاك اليها رئيسك بمناسبة ترقيته . تولاني قلق عصبي غريب ، كنت أعلم أن سامح لم يغادر البيت وأنه الآن في حجرته بجواري . فلم أستطع أن أهدأ وأعالج النوم . ساورتني رعدات متعاقبة كرعدات الحمى . خفقت دمائي خفقانا عنيفا تصاعد من عنقه ووجيب قلبي . شعرت أن احساسي تفلت مني ، وكان كياني كله ينسلخ عني ، بل كان شيئا أقوى من ارادتي وعقلي يدفعني الى الحركة والنهوض فنهضت . نهضت ومشيت ... مشيت دون أن أفكر لماذا نهضت ولماذا أمشي ... مشيت دون أن أفكر في ابنتي ، أو أسمع خطاها ، أو ألقي عليها نظرة . مشيت بخطى اللص الحذر . لم أسمع غير لهثات أنفاسي ، وطنين الليل حولي ، وتدافع الدم الذي كان يهدر في عروقي ... وتقدمت واذا بي تجاه حجرة سامح أريد أن أقتحمها وادخلها ... وما أن عبرت ودنوت من بابها وهممت بأن أفتحه . حتى تقهقرت مذعورة وصرخت ... وصرخت اذ أبصرت الباب يفتح من تلقاء نفسه ، ويبرز منه سامح ، ويقف أمامي وجها لوجه ! ...

كان هو أيضا يرتعش . كان في مثل حالتي . اراد هو الآخر ان يتسلل الى حجرتي . لم يستطع هو ايضا الا ان يلبي ندائي ويسرع الى ...

ولبثنا واقفين ، يحدق كل منا الى الآخر ، ويرى كل منا عينى الآخر ، ونظراته ، وقسمات وجهه ، مبتلعة متشنجة ، تملؤها الرغبة العاتية ، ويبرق في تضاعيفها العزم الأثيم .

وتخاذلت ركبتاي واوشكت ان اتهاوى ، فأسرعت واستندت الى مصراع الباب وانا ارتجف .

وكانت اشعة القمر المتسللة من النافذة ، تمتد الى سامح وتغمر وجهه الذي انسكب عليه ، برغم احتقانه وتصلبه ، فيض من حرارة الابتهال ومرارة التضرع ، وعذوبة الأسى ، روعني وفتنني ، واشاع في جسمي وعقلي تهافتا كتهافت الدوار ...

وخالف الصمت ذهولي ، ولعبي في صبابه الزاخر ، فتاه فكري ، وغلى دمي ، وتوترت أعصابي برغم خوفي ، واحسست انى اتقدم ايضا ، واتأمل سامح ، واوشك ان اصافح انفاسه التي كانت تهب كالنار على وجهي ... واستشعر هو ضعفي وتخاذلي ، فارقت عيناه ، وارسل صيحة مخنوقة ثم فتح ذراعيه وحاول ان يعانقني . ولكنه ما ان دنا مني ، ما ان لمسني ، وما ان شعرت انا بوطأة ذراعه اللينة القوية تحط في ارادة حاسمة على كتفي ، حتى جحظت عيناي، ودبت في مفاصلي رجفة زلزلت كياني ، واجبرت سامح على التزحزح عني ، والتراجع عني لحظة ريثما اتمالك نفسي .

وفي تلك اللحظة ، في تلك اللحظة التي كادت تجرفني وتطويني وتغمسني في لجة لا قرار لها ، اندفق على من موجها الصاخب صوت سالم ، رد الى عقلي وأيقظني .

ادركت في مثل خطف البرق ، ادركت ادراكا ثابتا في نحيره ، دقيقا في نوعده ، قطعا في صورته ، انى ساشطر جسدي بين أخوين ، وابدل نفسي لشقيقين . واعشق في بيت واحد بين رجلين ، يفترسني كل منهما فاصمت ، وستريب بي من هو صاحب حق علي فاكتم وامكر ، واخدع واكذب ، واتافق واضلل ، واتقلب ابدا في جو عاصف من الاقدام والاحجام ، والحذر والتوجس ، والقلق والرعب ، والتدهور والعذاب . فتصاعدت من اعماق ذاتي شهقة استنكار دفعتها موجة اشمئزار طاغية ، تمكنت مني ، واخذت بمجامعي ، واشاعت الحذر في اعصابي . فخشيت ان انا قاومتها ان اعود فاقع تحت سلطان رغبتي ، فلذت بها ، وتركت سيل الاشمئزاز والرعب يجملني ، وانتفضت وصرخت :

- سامح ...

ثم لوحت بذراعي وقلت :

- يجب ان ترحل ! ...

فتطلع الي الرجل مبهوتا وجمد . فاردفت وانا أجاهد كي لا انظر اليه :

- غدا ... يجب ان ترحل غدا .. يجب ان تغادر البيت ! ...

فاختلج اختلاجا عنيفا ، وصوب الي نظرة مسترحمة ممزقة . ولكني لم ارحمه ولم ارحم نفسي ، بل واجهت

عينيه الناعستين ، وقلب في صدرك حقيقي !

ــ ويجب ... يجب أن تتزوج سهام !

فامتقع وجهه، ثم رفت أهدابه رفيفا متداركا ، وتلوت شفتاه تمالكا دمعة وتحسبان في صدره انفجار عواطفه . ثم تداعى رأسه بغتة ، وتساقطت كتفاه ، وانبعث من هيكله المحطم صوت غائر يقول :

ــ سأرحل ...

ومد ذراعه بالرغم منه ، وحاول أن يلمسني . ولكنه ارتد مذعورا ودفع أصابعه في شعره كمن يريد أن يسحق . ثم صعد نفسا مستطيلا ، ورماني بنظرة تائهة ، واستدار فجأة ودخل حجرته وأوصد خلفه الباب .

واحسست أنا كأنما هذا الباب قد أوصد على حياتي ، فارغني نفسي أن أهاجم وأدفعه . ولكن هذا الباب نفسه ، هذا الباب الذي أوصده سامح في وجهي ، هو الذي أسعدني ، ومثل أمامي في صلابته الراسخة ما يجب أن تكون عليه صلابتي . فالتقطت أنفاسي ، وقفلت راجعة الى حجرتي ، وأوصدت أنا أيضا بابها علي .

ولم أكد أرى ابنتي راقدة على فراشي ، تغط في نومها الطاهر الساكن القرير ، حتى أسرعت واستلقيت على الفراش بجوارها ، وعزمت أن أطرد كل شيء وأنسى . ولكني عندما حاولت أن أنام ، شعرت كأن لوعة ما تزال تشتعل في قلبي . فارتميت على ابنتي وقبلتها فاستيقظت الطفلة وتملت . فضممتها في عنف الى صدري ، وأحسست راحة مفقودة تغمرني . فغمضت عيني ، وغمغمت أغني كيف طواني النوم واستغرقت فيه ...

***

وعدت أنت يا ممدوح من الحفلة قبيل الفجر ، مكتظا بالطعام والشراب، هائما بكرم رئيسك ، تتحدث في إعجاب وانبهار عن اللحوم السمينة ، والطيور المحشوة ، والحلوى الفاخرة ، وشتى أنواع المأكولات الشهية التي كانت تزين مائدة الحفلة والتي استمتعت بها دون أن تكلف نفسك قرشا واحدا . ثم ارتميت على فراشك ونمت كالقتيل..

وفي صباح اليوم التالي ، وكان يوم جمعة ، استيقظت أنا من نومي الخاطف مبكرة ،وأسرعت فأعددت طعام الافطار والغداء . وقبل أن تصحو أنت ويستيقظ سامح ، ارتديت ملابسي ، وأمرت الخادم بأن تحل في خدمة البيت محلي . ثم اصطحبت ابنتي وخرجت لزيارة شقيقتك احلال ...

كنت على أتم اليقين من أن سامح لابد أن يبر بوعده ، ولابد أن يغادر بيتنا في هذا اليوم . وكان في وسعي أن أودعه . كان في وسعي أن أزوده مني ولو بنظرة قبل رحيله . ولكني كنت قد استمددت قوتي وسيطرتي على نفسي . فلم أشأ أن ألتقي بسامح، أو أن أتيح له الفرصة لتوديعي .

ولما عدت الى البيت عصرا شاهدت ما كنت أتوقعه ... رأيتك أنت في حالة هياج عصبي ما رأيتك عليها أبدا من قبل . كنت مهتاجا هياجا لا يثير الدهشة بقدر ما يبعث على الضحك والرثاء ... رأيتك تغدو وتروح في

البيت كمعتوه . تنتظر بفارغ الصبر عودتي ـ زائغ العينين ، منتفخ الصدغين ـ تهدر وتزمجر غيظا ، وتصدم المقاعد وتركلها ، وتنهر الخادم وتسبها . وتصرخ وتهذي وكأنك تود أن تحطم كل شيء .

وما أن أبصرتني حتى انفجر مرجل غضبك ، وتفاقمت ثورتك . على أنها لم تكن ثورة رجل وإنما كانت ثورة طفل حانق يائس مسكين . صحت بي والدمع يكاد يقطر من عينيك ، أن سامح قد جمع ملابسه وحزم حقائبه ، وترك البيت دون سبب ... تركه الى غير عودة ... ثم رأيتك طفولة غيظك وكمدك ، وأردت اليك قسوتك وفظاظة طبعك ، فأردفت وفي عينيك بريق وحشي ؛ أن سامح قد صارحك بأنه قد سئم حياة العزوبة واعتزم أن يتزوج سهام ... ثم انقضضت عليّ وامسكت بي ، وصرخت في وجهي وأنت تهزني هزا عنيفا وتوشك أن تفترسني ؛ إني أنا ... أنا السبب في رحيل سامح ، وأني لم أعرف كيف أستميله ، وكيف أجتذبه ، وكيف أغريه . وكيف أحبب اليه الحياة المستمرة في بيتنا ...

ثم مضيت تندب وتولول ، وتذكر مروءة سامح وكرمه وخيره ؛ وكل تلك النعم التي كان يقدمها بالأمس الينا والتي ستغدق في الغد على الغريب...

وأصابك شبه مس . فتحولت الى نائحة تسائلني كيف أهملت ، وكيف تهاونت ؛ وأي ذنب قد ارتكبت في حق أخيك كي يرحل عنا هكذا فجأة وبدون سبب ...

وكنت تصرخ وهوس البخل يلتهب في عينيك . وشهوة المال ، والتكالب عليه ـ والحسرة على ضياعه ، تمسخ معالم وجهك وتفجر الزبد من شدقيك ...

وكنت أنا ، إزاء هذا المشهد المخجل ، ما أزال ثابتة هادئة ، أصطنع الاستغراب والدهشة من كل ما وقع ، وأفكر في أن أجبهك بالحقيقة لأستريح . ولكني استهولت أن أضرم في نفسك باعترافي نار ثورة أعنف وأشد . فاحتفظت بصمتي وهدوئي . فضاعف هذا الهدوء نفسه من هياجك وثورتك وإمعانك في اتهامي ، فكبر على أن تكون أنت السبب في ورطتي ثم تحملني عبء المسؤولية كلها وتظلمني . فتطاولت عليك بالرغم مني . فضل عقلك ، ورميتني بيمين طلاق واحدة شفعتها بطردي من بيتك . ثم دفعت الباب في عنف وخرجت .

أما أنا فلم أتردد لحظة واحدة . واصطحبت ابنتي ، واتجهت من فوري الى منزل أبي . وما كدت أستقر هناك حتى جاش في صدري شعور الاستنكار والظلم . ولم يعد في وسعي احتمال الكتمان والصمت . كنت قد احتفظت بالصمت حرصا على بيتي ، أما وقد هدمت أنت هذا البيت في غفلة وعمد ، فقد رأيت أنا أن من واجبي أن أتكلم ، ومن واجبي أن أتهم ، ومن واجبي أن أكشف النقاب عن الصراع الذي نشب في نفسي ، وعن المداعبات المريرة التي كابدتها ، وعن الورطة القاسية التي سقطت فيها ، لتعلم أنت ـ أنت يا من كنت بالأمس زوجي ؛ أنك أنت الذي حرضتني وأنت الذي أغريتني ، وأنت

أوشكت بحلك الدني، وحسمك المردول، ان تلوثني وتهلكني .

لهذا حزمت امرى وكتبت اليك هذه الرسالة .

فانعم النظر فيها مليا لعلك الآن تتأثر ، ولعل ضميرك يبكتك فتشعر وتقدر وتفهم . على أنك لو فهمت حقا موقفي . وقدرت حقا مبلغ عذابي ، وآمنت بصدق كل كلمة كتبتها في هذه الرسالة ، لم يداخلك أدنى شك لافي استقامتي وشرفي ولا في استقامة وشرف أخيك ، ثم أردت ان تثوب الى رشدك، وان تفكر في ردى يوما الى عصمتك ، فاعلم أني لن أعود اليك حتى ولو حبست عني نقودك ،وحتى ولواجبرتني على ان أعول ابنتك بنفسي . لن أعود اليك الا اذا أقلعت أولا وقبل كل شيء عن كبرى رذائلك . وهي رذيلة البخل التي نجم عنها دمار بيتك ،والتي كادت تعصف بي أنا أيضا وتحرفني . أما اذا أبيت الا ان تمعن في بخلك ، وتوغل في طمعك ، وترتع في بحبوحة أنانيتك وشراهتك وغلظتك وعدم اكتراثك ، فابق حيث انت . فلن أعدم أنا بعدك رجلا يفهمني ويقدرني ويجدد حياتي ويستطيع ان يحفظ بشهامته ورجولته، كرامته وكرامتي .

« عنايات »

***

وأدهشت هذه الرسالة صفوت . وكادت ترعجه ازعاجا شديدا- ومع ذلك فهو لم يستطع . من فرط اعتداده بنفسه وثقته في امرأته وايمانه بشرفها، ان يتصور ان تلك الوقائع التي وردت في الرسالة على النحو الذي رسمته عنايات . يمكن ان تكون قد أفضت الى أشياء نابية ومزعجة الى هذا الحد .

كان من عادته حرصا على هدوئه ، وضنا براحة باله ، وودودا عن روح العبث والاستهتار والمرح المتأصلة فيه، كان من عادته الا يؤمن بوجود العواطف الكبيرة والانفعالات العميقة ، ولايصدق أولا يريد ان يصدق ان تلك العواطف والانفعالات يمكن ان تتطور في نفس الانسان تطورا خطرا يؤدي الى وقوع كوارث ونكبات .

لهذا سخر من الرسالة . واصر على اعتبارها قصة محشوة بالمبالغة والخيال ارادت بها امرأته التنصل من ذنبها . بيد انه احس على الرغم منه ان تفاصيل الرسالة دقيقة ، وان لهجتها حارة وصادقة . فاكربته تلك الدقة اللعينة، وهذا الصدق المزعج . فأبى ان يتأثر بهما خشية ان يؤثرا في جو حياته الرخي المرح، كما أبى حرصا على كرامته وكبريائه ان يفكر في مناقشة امرأته حول محتويات الرسالة . أو ان يواجه أخاه ويطلعه عليها .

ولم يكن في الواقع مشغولا بالرسالة. ولا بالنزاع الذي أقصى عنه امرأته . ولا بنبأ الطلاق التي افلتت منه . بل ان ما كان حقا يشغله . وينغص عليه عيشه ، هو خوفه من ضياع المال . هو حرصه على الدجاجة التي كانت تبيض له كل يوم ذهبا . فانطلق يتعقب أخاه . ويطارده . ويضيق السبل عليه، عساه أن يقنعه بترك المشروع الذي نزل فيه . والعدول عن الزواج بسهام، والعودة فورا الى البيت .

ولكن سامح لم يضعف . ولم يستسلم- كان يقاوم ويرفض - كان . وقد تأثر مما حدث وهاله ان تطلق عنايات

بسببه يمض في الشمت بموقعه ، ويأمر شقيقه بالعودة الى امرأته ويثني عليها ويطري خلالها ، ويحمل على اخلاق صفوت ، ويرى عايات من كل عيب ودنس .

وكما كان يصر على وجوب عودة اخيه الى زوجته ، كذلك كان يصر هو على استمساكه بحريته ، وعلى حقه في الحياة واعتزامه ان يقترن وشيكا بسهام ..

وتحطمت محاولات صفوت وأفانين مكره على صخرة عناد اخيه . يئس من امكان الفوز بالمال ، فملأ الغيظ قلبه ، ونهش الكمد صدره وتحولت ثورته الى امرأته ، فأبى أن يذهب اليها او يتصل بها ، أو يرى ابنته الوحيدة التي كان لا يعطف في العالم على أحد غيرها .

وبدأ يذهب همه في الأكل ، ويعيش في البيت وحيدا شريدا تائها ، تلفه العزلة ، وتكتنفه الجهامة ، ويسحقه الضيق والضجر والكمد .

وانقضى شهر بطوله وهو يتقلب في هذه الوحشة الخانقة ، هذه الوحشة التي لم يألفها ، والتي لا تتفق وعاداته وميوله ، والتي باتت عليه بمثابة كحمل ثقيل أو هم وبيل لم يكن قط في حسبانه فحاول ان يفر من تلك الوحشة باللهو والسهر فلم يفلح . وحاول ان يتغلب عليها بفكرة الزواج من امرأة أخرى ، فلم يستقر أيضا ولم يهدأ .

كان فكره لايطاوعه، وقلبه لايمالئه وارادته لا تستجيب اليه . كان ضميره يهمس في اعماق روحه البليدة الكثيفة همسا دائما متقطعا خفيا ، ان امرأته صادقة وبريئة ، وان الذنب ذنبه هو لا ذنبها ، وانه هو المسؤول عن كل ما وقع لا هي .

وكما يحدث في نفوس الضعاف الغلاظ المستمتعين ، العاجزين عن الصبر على الألم ، التواقين الى الراحة والمرح ، المراعين الى الحركة السهلة والحياة اللينة ، لم يستطع صفوت احتمال عزلته وجهامته ووحشته . فتمنى ان يتحول ، وأراد أن يتحول ، فلم يجد بدا أو بأسا من الاعتقاد بأنه بالفعل قد تحول ، وانه هو المذنب حقا . ذلك لأن

قلبه وجسمه وكل ما فيه كان يصبو الى التمتع بامرأته ، ويجو الراحة والأمن والأنس الذي اعتاد ان يحس به منبعثا منها ، منتشرا في البيت حول انوثتها ووجودها ..

ولم تكد هذه الصورة الحلوة تندس في خياله وتتمكن منه ، حتى ارتد من فوره الى طبيعته وتبخر .. لمعت عيناه وأبرقت اساريره ، وعادت الابتسامة العابثة المستهترة فازدهرت في غبطة ومرح على شفتيه ..

وفي ذات مساء .. حزم أمره .. وقام يحلق ذقنه ، ونسق شعره ، وارتدى أجمل أثوابه وتعطر ، ثم خرج .

وقبل ان يستقل الترام ، عرج على محل حلواني .. واشترى علبة متواضعة من الفواكه المسكرة ، ومثلها صغيرا من الشوكولاته ، ثم توكل على الله وقصد الى بيت حميه ..

ودخل على امرأته .. مشرق الطلعة ، بريء النظرة ، ضاحك السن .. كأنه كان منذ لحظة معها ، وكأن لم يحدث بينهما أي شيء ..

ودهشت عنايات وتجهمت .. وقابل جميع افراد العائلة ، ثم داعب حماته ابوها وامها واخوها تصرف صفوت بالسرور والارتياح وان كانوا قد التزموا هم ايضا جانب التجهم ، وبدت عليهم امارات الفتور - فلكي يحل صفوت عقدة تجهمهم .. ويبدد فتورهم ، ويدهشهم ويبهرهم ، لم يسرع بمصالحة امرأته .. ولم يصعد اليها .. ولم يشر ولو من طرف خفي الى حدوث اي نزاع بينهما .. بل اسرع وقدم اليها علبة الفواكه المسكرة .. ثم انحنى وعانقها في حرارة وقبلها ، ثم استفسر عن صحة جميع أفراد العائلة ثم داعب حماته العابسة ومازحها .. وطفق ينثر المجاملات الرقيقة والدعابات اللطيفة والنكت المستملحة .. وهو يحتضن انسبه ويهدهدها ، ويدس في يدها علبة الشوكولاته ، ضاحكا لنكته ، متباهيا متفائلا مستبشرا ..

وادهلت الكل هذه الروح البسيطة الطيبة السمحة وطماناتهم . فانتعش جو البيت .. وانتعش صفوت نفسه بهذا الجو .. فأمعن في القفش والتنكيت ، فانتشر المرح مجلجلا .. فانتسمت الحماة بالرغم منها ، وقهقه زوجها ، وكاد ابنه يستلقي على ظهره من فرط الضحك .

اما عنايات فقد ظلت ثابتة متجهمة، ولكنها ما لبثت ان ابتسمت مكرهة ، ثم ضحكت ، ثم لم تستطع حيال طوفان النكت ان تضبط نفسها فمضت تقهقه هي الأخرى .

ولما اطمأن صفوت الى أن الجو قد صفا ، عرض في لباقة على امرأته ان يعود بها الى البيت .. ولكن عنايات التي ارادت ان تمتحنه وان تستوثق مما اذا كان قد طالع الرسالة بامعان وتدبر واصبح وفي عزمه ان يغير حقا من طباعه واخلاقه .. رمقته بنظرة متأنية صارمة أدرك هو معناها ولكنه تجاهلها واغضى عنها . فانثنت اليه وقالت له انها لن تعود الى بيته الآن ، وانها في حاجة الى التفكر والترفيه عن نفسها في جو أسرتها . ثم اذنت له ان يسهر الليلة معهم وان يزورهم ايضا وفي أي وقت شاء .

وابتهج أهلها بقضاء السهرة في صحبة صفوت المرح الطروب .. فاستبقوه ملحين متشبثين .. فما كان منه الا ان نهض مسرعا ، ونضا عنه بعض ثيابه ومال الى حجرة النوم فاختطف من

الشماعة احدى جلاليب حبيه ، وارتدى الجلابية وخرج عليهم ..

وكانت الجلابية ضيقة وقصيرة . فانحشر فيها صدره الكبير ، وبرز منها كرشه المكور ، وبدت من تحتها ساقاه عاريتين ملبدتين بالشعر . فضحك الجميع واغرقوا في الضحك . فأحال صوت الضحك فيهم وهو يضحك مثلهم ويتواثب كأنه يرقص . ثم راق له بعدئذ ان يدهشهم ايضا ، وان يبهرهم ، وان يضاعف سروره وسرورهم بهذه الليلة السعيدة الشائقة . فاندفع نحو سترته ، واخرج منها حافظة نقوده . ثم نادى الخادم في صوت معتز جهير ، وناولها في سماحة جنيهين كاملين ، وأمرها بأن تذهب وتشترى كيلوين من لحم الضأن الـ « ملبس » باللية ، وعشرة ارغفة وكثيرا من البقدونس والطماطم والخيار . وما كادت الخادم تختفي حتى أسرع هو الى المطبخ ، وأشعل وابور الغاز ، ثم ثبت فوقه المشواة ثم حمل الوابور الى غرفة الصالون ، ووضعه على الأرض ، وتربع تجاهه ، واشار الى الجميع بأن يتربعوا حوله ، وجعل يفرك يديه ويبتسم .. ولما عادت الخادم أمرها بأن تغسل البقدونس ، وتعد طبقا من السلاطة المنقية . ثم تناول منها اللحم ، وقلبه لحظة ، وتفحصه ، ورضى عنه ثم بدأ يرص الشرائح في دقة على المشواة ، ورأسه يهتز ، وعيناه المتلهفتان تلمعان ..

وتصاعدت في الجو رائحة الشواء . وعادت الخادم تحمل صينية فيها السلاطة والبقدونس والخبز ، فتقاطر الجميع على صفوت وهم يتدافعون ويتصايحون . فاستمهلهم فلم يمهلوه .. فجعل يلتقط باصابعه قطع اللحم المشوية ويدس كل قطعة في شطيرة من الخبز ، ويقدمها منتهجا لأقرب يد ممتدة اليه متهافتة عليه .. واختص نفسه بالقطع الكبيرة ، وشرع ينهشها في نهم ، ويمضغها في شغف ، ويستمرئها في نشوة .. وعيناها التي لم يستخفهما كل ما كان يجرى حولها .. تتأمل صفوت ، وترى شراهته المستفحلة ، وغلظته ومكره وسخاءه المشاش ، ماثلة في عينيه .. وفي كتفيه ، وفي شفتيه .. وفي اسنانه الوطيدة التي تطحن الطعام طحنا وتسلمه كأنها تحرس ثروة عزيزة وتطمرها ..

وعاودها شعور التقزز ، وظلت تمعن النظر في الرجل ..

ايقنت انه لم يتغير ولن يتغير .. وعندما تحول اليها وابتسم لها ، وناولها قطعة الخبز الدافئة ، لم تنظر اليه بل نظرت الى قطعة الخبز وما فيها . نظرت الى اللحم .. الى شريحة اللحم المشوية المتألقة الناضجة بالدهن ، وانحسرت عن ذهنها السحب فجأة وادركت ..

ادركت ان هذا اللحم هو الخمر ، هو النسيان .. هو الخلاص .. وانها اذا ارادت ان تعيش مع هذا الرجل ، وتنسى الى الأبد قلبها ، وحبها ، وآمالها ، فعليها ان تضحك ، وان تمرح ، وان تحب هذا اللحم . هذا اللحم الذي كان يثير حتى اللحظة تقززها واستنكارها ..

وأدنت القطعة من فمها ، وعضت عليها باسنانها .. فوجدت لها طعما لذيذا جديدا . فأحست على دهش منها ، أحست وهي مأخوذة ومبهوتة ، ان اللحم قد اختطفها ، وان عبير الشواء قد احتواها .. وان الدموع التي كانت تتحير في عينيها ، ترتد فجأة وتتبدد ، وتؤثر ان تموت في قلبها على ان تنحدر على خديها ..